توجيه السياسة، ومصدر القرار الذي انتقل من ايدي «الافندية» و«الاقطاع» إلى ممثلي «البرجوازية الوطنية».

هكذا، اذاً، فقد كان الأمر يتعلق بايجاد شكل من المقارنة، تستدعيها وتلح عليها، ليس الرغبة في فهم الماضي وانما، قبل أي شيء آخر، الرغبة الملحة في اعادة تأويل هذا الماضي؛ اعادة تأويل تلبي حاجة الواقع الجديد في إطار الصراع المتجدد في بنية الحركة الوطنية الفلسطينية.

يعبر ناجي علوش في صياغة مبكرة، في أواخر الستينات، عن نموذج هذا التأويل بقوله: «كان ما فعله القسّام أبلغ ردّ على سياسة ' زعماء' فلسطين التقليديين (يسميهم علوش، وبعده اليسار الفلسطيني، طبقة الزعامات والوجاهات). فلقد ثقف ونظم وقاتل حتى مات شهيداً غير آبه لجاه، أو باحث عن زعامة. وكانت سيرته مثلاً للكفاح والفداء، بعكس زعماء فلسطين التقليديين، الذين اختاروا طريقاً آخر، وفضلوا المناصب على المتاعب، والمساومة على المقاومة»[٣]. هذه هي، تقريباً، حدود المقارنة المفضلة، التي تتكرر في الكتابات التاريخية، وفي مواقف اليسار الفلسطيني، عشرات المرات فيما بعد. يتعلق الامر، اذاً، حسب الحكم السابق، بوجود اتجاهين متناقضين في اطار الحركة الوطنية الفلسطينية: اتجاه أول يعبر عنه رائد الحركة القسّامية ومؤسسها، وهو الاتجاه «الثوري»، «الجذري»، واتجاه ثان وهو الذي تعبر عنه قيادة الحركة الوطنية، كما تتمثل بشخص رئيسها المفتي الحاج أمين الحسيني. وهو اتجاه «مساوم» «مهادن»، و«رجعي» و«اصلاحي» و«متآمر»، الخ.

ولكن حتى تكتسب المقارنة ـ «المفاضلة» كل عناصرها، فان ذلك يقتضي ان يكون الاتجاه الأول «الثوري»، ممثلاً لمصالح طبقة العمال والفلاحين، وذلك في مواجهة طبقة «الافندية» و«الاقطاع». هكذا تكتمل كل عناصر التأويل الايديولوجي، في الخطاب اليساري الفلسطيني. فههنا سياسة جذرية في ثوريتها يقابلها، هناك، سياسة مهادنة ورجعية، وههنا يقف العمال والفلاحون في صف، وههناك يقف الأفندية والاقطاعيون والمثقفون والبرجوازيون. ولكن حينما يلحظ هذا الخطاب، في موضع آخر، ان أي حركة ثورية، جذرية، لا بد لها ان تمتلك الايديولوجيا الماركسية ـ اللينينية، لان الايديولوجيا الليبرالية، والرجعية الدينية، سقطت، فانه يصمت صمت الأموات عن التناقض الاشكالي الذي تطرحه هذه المقارنة، حينما ينظر الى تاريخ الشيخ، فيراه وقد تتلمذ على يد السلفي الاسلامي محمد عبده، في الأزهر، ويرى ان دعوته انطلقت من المساجد، وليس من المصانع، وانه كان يختار اعضاء منظمته ومعاونيه من الرجال الاتقياء المتدينين، أي باختصار حينما يرى ان الايديولوجيا الدينية السلفية، أي نفس تلك الايديولوجيا التي بشر بسقوطها وتحولت الى ايديولوجيا رجعية، فما الذي يفعله الخطاب اليساري، لحل هذه المعضلة؟ لا شيء سوى السكوت عن كل هذا التاريخ. واذا ما حاول ان يعترف بهذه الورطة، فانه يكتفي بالاشارة اليها بخجل، دون ان يكلف نفسه عناء البحث فيها[٤]. وما يفعله الخطاب اليساري منذ سنوات عديدة، بكيفية محددة، كانت الاطراف الأخرى قد فعلته قبل ذلك، بكيفية مغايرة، وان اختلفت الاسباب والدوافع. ولكن اذا كان الخطاب اليساري قد مارس إعادة التأويل كما بيّنا سابقاً، لاسباب تتعلق بالحاضر، أي من أجل تبرير مشروعية مواقفه في اطار معارضته للقيادة الحالية للحركة الوطنية، فان الاسباب التي دعت كلاً من «الناطق باسم المؤسسة الدينية التقليدية»، و«داعية القومية الليبرالية»، كانت تعود، في اسبابها، إلى دوافع املتها المصالح الآنية التي كانت تنبثق من